الحلقة (١٤)

في هذه الحلقة سنتكلم عن النبي صلى الله عليه وسلم "**هو خاتم الأنبياء وإمام الأتقياء**" فالنبوة خُتمت بمحمد، يقول الله سبحانه: {وَلَـٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّين} ويقول صلى الله عليه وسلم: (مثلي ومثل الأنبياء كمثل قصر أُحسن بناؤه وتُرك منه موضع لبنة، فطاف به النظار يتعجبون من حسن بنائه إلا موضع تلك اللبنة لا يعيبون سواها، فكنت أنا سددت موضع تلك اللبنة، خُتم بي البنيان وخُتم بي الرسل) وأصل الحديث في الصحيحين، ويقول صلى الله عليه وسلم: (إن لي أسماء، أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يُحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب والعاقب الذي ليس بعده نبي) وفي صحيح مسلم عن ثوبان قال: قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (وإنه سيكون من أمتي كذابون ثلاثون، كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي).. الحديث ولمسلم أيضا أن الرسول قال: (فُضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض طهورا ومسجدا، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون).

أما قول الماتن الطحاوي رحمه الله "**إمام الأتقياء**": فالإمام الذي يؤتم به أي يقتدى به، والرسول صلى الله عليه وسلم بُعث للاقتداء به لقوله تعالى: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ} وكل من اتبعه واقتدى به فهو من الأتقياء، والرسول كما يقول الماتن الطحاوي: "**وسيد المرسلين**" يقول الرسول: (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع، وأول مشفع) وفي أول حديث الشفاعة يقول: (أنا سيد الناس يوم القيامة)، وروى مسلم والترمذي عن واثلة بن الأصقع رضي الله عنه قال: قال رسول الله: (إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم)، هذا ما يتعلق بالكلام عن قول المؤلف رحمه الله: خاتم الأنبياء وإمام الأتقياء وسيد المرسلين.

← **مسألة وهي مسألة التفضيل بين الأنبياء**: التفضيل بين الأنبياء جاء به النص كما قال عز وجل {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْض} والرسل كثيرون، وأفضلهم أولوا العزم من الرسل وهم خمسة، من ناحية الزمان: نوح ثم إبراهيم ثم موسى وعيسى ثم محمد صلى الله عليه وسلم، وقد جاء ذكرهم في سورتي الأحزاب والشورى، وهؤلاء الخمسة أفضلهم محمد، فقد فُضل إبراهيم بالخلة، {وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا}، والله عز وجل جعل محمد خليلا له كما ثبت ذلك في السنة، ففضل إبراهيم جاء لمحمد، وفُضّل موسى بالتكليم، ومحمد مُكلم كما في حديث المعراج.

← **مسألة: إن الفضل والتفاضل والتخيير بين الأنبياء له حالتان:**

١- حالة عامة ٢ - وحالة خاصة كما ساقها المؤلف وكما سنقرؤها بعد قليل.

فالحالة العامة : يجوز فيها ذلك بمعنى أن يُقال محمد أفضل المرسلين، سيد المرسلين، أشرف الأنبياء والمرسلين،

أما الحالة الخاصة: في مقابلة نبي بذاته، فهذا يكون خصوص فلا يجري التفضيل على وجه الاختيار، ولهذا جاء في السنة إن النبي قال: (لا تخيروني على موسى، فإن الناس يُصعقون يوم القيامة فأكون أول من يُفيق فإذا أنا بموسى آخذ أو قال باطش بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أأفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور) فقوله (لا تخيروني على موسى) وفي رواية (لا تفضلوني على موسى) دل على عدم جواز التفضيل الخاص.

أيضا مسألة **التفضيل أن هذا البحث (بحث التفضيل بين الأنبياء)** جاءت فيه أحاديث منها حديث (لا تفضلوني على موسى) (لا تخيروني على موسى) ومنها حديث عام (لا تخيروا بين الأنبياء)، ومنها حديث خاص بيونس عليه السلام: (لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متّى) وفي رواية (من قال أنا خير من يونس بن متّى فقد كذب) وهذا اختلفت فيه أنظار العلماء في الجمع بين هذه الأحاديث والتفضيل، وما جاء في القرآن الكريم من قول الله عز وجل: {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ}، وأحسن الأجوبة على ذلك أن يقال:

- أولا: أن قول النبي صلى الله عليه وسلم (لا تخيروني على موسى) هذا قاله بسبب قصة وردت، وهو أن يهوديا ومسلما اختلفا، فافتخر اليهودي على المسلم بموسى، والمسلم رد على اليهودي ولطمه، **فإذن يكون النهي إذا كان التفضيل الخاص جاء على جهة العصبية والحمية والفخر**، ولهذا جاء في الحديث: (أنا سيد ولد آدم ولا فخر) فدل على أن التفضيل إذا كان مورده الفخر والعصبية فإنه يُمنع منه.
- ثانيا: **أن جهات الفضل متنوعة، والتفضيل من جهة جنس الفضائل سائغ، ومن جهة كل فضيلة بحسبها متعدد،** ولهذا يُقال إن تفضيل محمد من جهة مجموع الفضائل، ولا يُنص على أنه أفضل من غيره من الرسل في كل فضيلة عند جميع الرسل، يعني من حيث النظر العام.
- ثالثا: **أن يُقال إن التفضيل بين الأنبياء لا حاجة إليه، لأن الأنبياء والرسل رسالتهم واحدة،** والله عز وجل وصف المؤمنين بأنهم آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله لا يفرقون بين أحد من رسله، والرسل وصفهم النبي بقوله: (الأنبياء إخوة لعلاّت، الدين واحد والشرائع شتى)، وتولي جميع الرسل فرض، ومحبتهم جميعا فرض، **فإذن الدخول في التفضيل دخول فيما لا طائل تحته، فالواجب أن يُبقى في ذلك على النص، وهو ما ذُكر في البداية من أن التفضيل العام دون التفضيل الخاص،** أما قول رسول الله: (من قال أنا خير من يونس بن متّى فقد كذب) فهذا لأن بعض الناس قد يظن أن يونس عليه السلام فعل ما يُلام عليه، إذ قال الله عنه {مُلِيم}، وأنه عوقب بأن كان في البحر وفي بطن الحوت ثم قال: {لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ}، فقال إن هذه الكلمة ربما تكون لمن فعل

شيئا يُلام عليه وعوقب، فقال إن يونس بن متى قالها لأنه فعل ما فعل، وهذا في الحقيقة غلط وغير صحيح، لأنه لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى، فيترك الدعاء بهذا الدعاء العظيم، فقد دعا به آدم عليه السلام ودعا به موسى وغيرهما من الأنبياء والمرسلين، إذن هذا الدعاء وحال يونس بن متى ليس فيها نص في حقه عليه السلام، أعني يونس بن متى، فإذن لا ينبغي أن يُقال أن فلان أفضل من يونس من جهة الاستحباب، أي لا ينبغي أن يقال إن محمدا أفضل من يونس بن متى على جهة الاستحباب، والدليل دل على عدم الجواز فيمن يقوله لنفسه، فلا يجوز لأحد أن يقول أنا أفضل من يونس بن متى، والنبي ترك ذلك وهو أكمل الخلق.

هذا البحث ربما لم تظهر حاجته لكن بحثه العلماء في هذا الموضع لأن هناك من يعتقد الكمال في الولاية، ومن يظن أن حالته أرفع من حالة يونس بن متى عليه السلام، فإذا قيل يُشكل على قوله صلى الله عليه وسلم -كلام الشارح-: (لا تفضلوني على موسى فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فأجد موسى باطشا بساق العرش فلا أدري هل أفاق قبلي أو كان ممن استثنى الله) فكيف يجمع بين هذا وبين قوله: (أنا سيد ولد آدم ولا فخر).

يقول الشارح:" فالجواب أن هذا كان له سبب، فإنه كان قد قال يهودي: لا والذي اصطفى موسى على البشر فلطمه مسلم وقال: أتقول هذا ورسول الله بين أظهرنا؟ فجاء اليهودي فاشتكى من المسلم الذي لطمه، فقال النبي هذا، لأن التفضيل إذا كان على وجه الحمية والعصبية هوى، وهوى النفس كان مذموما، بل نفس الجهاد اذا قاتل الرجل حمية وعصبية كان مذموما، فإن الله حرّم الفخر وقد قال تعالى: {وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْض} وقال: {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَات}، ، **فعُلم أن المذموم إنما هو التفضيل على وجه الفخر أو على وجه الانتقاص من المفضول**، وعلى هذا يُحمل قوله صلى الله عليه وسلم: (لا تفضلوا بين الأنبياء) كما أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فإذن فإن كان هذا روي في حديث موسى فهو في البخاري وغيره لكن بعض الناس يقول أن فيه علة بخلاف حديث موسى فإنه صحيح لا علة فيه باتفاقهم، **وقد أجاب بعضهم بجواب آخر** وهو أن قوله صلى الله عليه وسلم: (لا تفضلوني على موسى) وقوله (لا تفضلوا بين الأنبياء) **نهي عن التفضيل الخاص**، أي لا يُفضل بعض الرسل على بعض بعينه، بخلاف قوله: (أنا سيد ولد آدم ولا فخر) فإنه تفضيل عام فلا يُمنع منه، وهذا كما لو قيل فلان أفضل أهل البلد لا يصعب على أفرادهم، بخلاف ما لو قيل لأحدهم فلان أفضل منك، -يقول الشارح- ثم رأيت الطحاوي رحمه الله قد أجاب بهذا الجواب في شرح معاني الآثار، -كما قدمنا في الحلقة الأولى- أما ما يُروى أن النبي قال: (لا تفضلوني على يونس) فهذا كلام الشارح فيه كما بينت، يقول حادثة وقعت على عهد بن أبي العز: بعض الشيوخ (ولعله من الدجاجلة وليس من الشيوخ) لا يفسر لهم هذا الحديث حتى يُعطى مالا جزيلا، فلما

أعطوه المال فسره بأن قرب يونس من الله وهو في بطن الحوت كقربي من الله ليلة المعراج، وعدوا هذا تفسيرا عظيما، وهذا يدل على جهلهم بكلام الله وكلام رسوله لفظا ومعنى.

فإن هذا الحديث بهذا اللفظ لم يروه أحد من أهل الكتب التي يُعتمد عليها، وإنما اللفظ الذي في الصحيح (لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى) وفي رواية (من قال إني خير من يونس بن متى فقد كذب) وهذا اللفظ يدل على العموم، أي لا ينبغي لأحد أن يفضل نفسه على يونس عليه السلام، ليس فيه نهي للمسلمين أن يفضلوا محمدا على يونس، وذلك لأن الله تعالى قد أخبر عنه أنه ألتقمه الحوت وهو مليم، أي فاعل ما يُلام عليه وقال الله تعالى {وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِين} فقد يقع في نفس بعض الناس أنه أكمل من يونس فلا يحتاج إلى مقام هذا الدعاء، إذ لا يفعل ما يُلام عليه، ومن ظن هذا فقد كذب، بل كل عبد من عباد الله يقول ما قال يونس {لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِين} كما قال أول الأنبياء وآخرهم، أول الأنبياء آدم قال: { رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِين} وآخرهم وأفضلهم وخاتمهم وسيدهم محمد صلى الله عليه وسلم قال في الحديث الصحيح حديث الاستفتاح من رواية علي بن أبي طالب بعد قوله: (وجهت وجهي إليك.. إلى آخره.. اللّهُمَّ أنت الملك لا إله إلا أنت، أنت ربي وأنا عبدك ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعا لا يغفر الذنوب إلا أنت) وكذا قال موسى عليه السلام: : {رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيم} وأيضا يونس عليه السلام لما قيل فيه {فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوت} فنهي نبينا عن التشبه بيونس وأُمر بالتشبه بأولي العزم من الرسل، حيث قيل له {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ} فقد يقال لمن يقول أنا خير منه **وليس للأفضل أن يفخر على من دونه، فكيف إذا لم يكن أفضل** {إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ}، وفي صحيح مسلم عن النبي أنه قال: (أُوحي إليّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد) فالله تعالى نهى أن يُفخر على عموم المؤمنين فكيف على نبي كريم، فلهذا قال: (لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى) فهذا نهي عام بكل أحد أن يتفضل أو يفخر على يونس عليه السلام.

وقوله: (من قال إني خير من يونس بن متى فقد كذب) فإنه لو قُدّر أنه كان أفضل فهذا الكلام يصير أنقص فكيف يكون كاذبا، وهذا لا يقوله نبي كريم بل هو تقدير مُطلق أي من قال هذا فهو كاذب، وإن كان لا يقوله نبي، كما قال تعالى: {لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُك} وإن كان النبي معصوما من الشرك، لكن الوعد والوعيد لبيان مقادير الأعمال، وإنما أخبر النبي بأنه سيد ولد آدم لأننا لا يمكننا أن نعلم ذلك إلا بخبره إذ لا نبي بعده يخبرنا بعظيم قدره عن الله سبحانه كما أخبرنا هو بفضائل الأنبياء قبله صلى الله عليهم وسلم أجمعين، ولهذا أتبعه بقوله: (ولا فخر) كما جاء في رواية

"وهل يقول من يؤمن بالله واليوم الآخر إن مقام الذي أُسري به إلى ربه وهو مقرب معظم مكرم كمقام الذي أُلقي في بطن الحوت وهو مُليم، وأين المعظم المقرب من الممتحن المؤدب، فهذا في غاية التقريب وفي غاية التأديب" فانظر إلى هذا الاستدلال بهذا المعنى المحرّف للفظٍ لم يقله الرسول، وهل يقاوم هذا الدليل على نفي علو الله تعالى على خلقه؟ الأدلة الصريحة القطعية على علو الله تعالى على خلقه التي تزيد على ألف دليل كما يأتي الإشارة إليه عند قول الشيخ رحمه الله: "**محيط بكل شي وفوقه**" إن شاء الله.

المسألة التي تليها وسنتحدث عنها إن شاء الله هي قول المؤلف رحمه الله: "**حبيب رب العالمين**" المحبة، محبة رب العالمين محبة الله عز وجل لنبيه هذه متحققة، وإنما نُظر في مسألة الخُلة، والمحبة لفظ عام يدخل تحته مراتب في اللغة، وأعلى مراتب المحبة هي مرتبة الخُلة، وهي أعلاها على الإطلاق، فالتعبير بحبيب رب العالمين من الطحاوي مال إليه لأجل ما ورد في بعض الحديث (إن إبراهيم عليه السلام خليل الله ومحمد حبيب رب العالمين).

والجواب أن هذا الاقتصار على مرتبة المحبة العامة للنبي قصور في التأليف من الطحاوي رحمه الله، لأنه صلى الله عليه وسلم هو حبيب رب العالمين وهو خليل رب العالمين أيضا كما أخبرنا صلى الله عليه وسلم، فإبراهيم عليه السلام خليل الرحمن كما قال الله {وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا} وكذلك محمد خليل الله كما ثبت ذلك في السنة قال: (لو كنت متخذا أحدا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا، إن صاحبكم خليل الرحمن أو قال خليل الله) **فدل هذا مع أحاديث أُخر في الباب على أن المحبة ثابتة للنبي وفوقها مرتبة الخُلة ثابتة للنبي صلى الله عليه وسلم**، إذا تبين ذلك فهاهنا عندنا أكثر من مسألة.

مسألة مهمة أن المحبة بمراتبها التي تُضاف إلى رب العالمين، إنما هي ما ورد في نصوص الشرع، وبعض الناس غلوا في ذلك، فوصفوا الله عز وجل بكل مراتب المحبة، وهذا باطل وغلو، **وبعضهم جفا كالجهمية والمعتزلة** ومن نحا نحوهم، فنفوا المحبة بمعناها الظاهر وما يكون من مراتبها، فنفوا حقيقة محبة الله لعبده، ونفوا حقيقة اتخاذ الله عز وجل لعبده إبراهيم خليلا، وأولوا ذلك كما سيأتي في مواضعه في بيان أصولهم في الصفات، وأهل السنة والجماعة رحمهم الله بين هاتين الطائفتين **فلم يغلوا في محبة الله لعبده، ولم يكونوا من الجفاة الذين جحدوها،** بل سلكوا الأصل الذي أصلوه وأن هذه المسائل تبع لما ورد في نصوص الوحيين الكتاب والسنة، فمن مراتب المحبة التي جاءت فيها النصوص كما سنقرأ في كلام الشارح: وتثبت لله عز وجل الإرادة الخاصة التي هي بمعنى المحبة، والمحبة بلفظها، وكذلك المودة، وكذلك أعلى مرتبة وهي مرتبة الخُلة، **هذه هي التي ثبتت في النصوص هذه الأربع: إرادة ومحبة ومودة وخُلة،** وما سواها فلا يجوز لأنه لم يرد في الشرع.